Mohammed Al Thubaiti, the Prometheus of Poets: A Reading of Ali Alnahawi's Poem "The Desert Maser"

Dr. Majdi bin Eid Al-Ahmadi
Associate Professor of Literature and Criticism-University of Tabuk
mealahmadi@ut.edu.sa
Dr. Mohammed bin Abdullah Al-Dosari
Assistant Professor of Literature and Criticism - University of Tabuk
eyasjob@yahoo.com

DOI: https://doi.org/10.31973/aj.v1i144.3700

Abstract:

The present study aims at showing the position of the poet Mohammed Althubaiti as described in Ali Alnahawi's poem titled "The Desert Maser " which appeared in *The Female of the Dice* collection. This poem represents Alnahwi's belief in the distinctive position of Muhammad Al Thubaiti in poetry and in recognition of his artistic status. Accordingly, this study came to explore this poem, focusing on its title, structure, as well as the deep connotations and textual intersections prevailing in it. The study gains importance in dealing with a text that highlights the impact of the poet Muhammad Al-Thubaiti, who is considered the most prominent poets of Saudi Arabia even after his death, Because of his enlightening influence on the poets of his generation and those after them.He was born in 1952 in the city of Taif. He is considered one of the pioneers of activating poetry, and has won a number of awards, including: the award for the best poem in the seventh session of the Foundation of the Abdul Aziz Saud Al-Babtain Prize for Poetic Creativity, in 2000, for the poem (The Position of the Sand.. The Position of Alliteration), and the award and title (Okaz Poet), In 2007, Al-Thubaiti suffered a heart attack, after returning from a cultural trip to Yemen, which he suffered from its effects for a long time, until he died - may God have mercy on him - on Friday, January 14, 2011. The al-Thubaiti poet has several collections of poetry, and the Literary Club in Hail has published the complete al-Thubaiti poetic works in one volume.

The study concluded by revealing a text that expresses admiration for the personality of Mohammed Althubaiti. Remarkably, Ali Alnahawi goes beyond the usual and the familiar for praise poems by recognizing Mohammed Althubaiti's uniqueness in the field of poetry which brings him out of the world of the merely great poets to the world of the legendary characters. Outstandingly, Ali al-Nahwi bestows on al-Thabiti qualities of a miraculous and legendary dimension, which is manifested in his belonging to the wind that gives him dominion over the hand, which makes the text place the recipient in front of a character who tends to legend.

Keywords: Myth Creation, Connotations, Title, The Desert Maser-Mohammed Althubaiti

محمد الثبيتي بروميثيوس الشعراء
قراءة في قصيدة (تحية لسيِّد البيد) للشاعر علي النحوي

د. مجدي بن عيد الاحمدي
أستاذ الأدب والنقد المشارك–جامعة تبوك

د. محمد بن عبد الله الدوسري
أستاذ الأدب والنقد المشارك–جامعة تبوك

(مُلَخَّصُ البَحث)

تهدف هذه الدراسة إلى بيان مكانة الشاعر محمد الثبيتي في قصيدة (سيِّد البِيْد) للشاعر علي النحوي، التي جاءت في ديوان (أُنْثَى النَّرْد)؛ إذ تُمثّل هذه القصيدة إيمانًا لدى الشاعر علي النحوي بمكانة الشاعر محمد الثبيتي العالية في الشعر، واعترافًا بقيمته الفنية؛ لذا جاءت هذه الدراسة لتستكشف هذه القصيدة من خلال العنوان، وبنية القصيدة، والدلالات العميقة، والتقاطعات النصّية. وتكتسب الدراسة أهميتها في تناولها لنّصٍ يُبرز أثر الشاعر محمد الثبيتي، الذي يعدّ أبرز شعراء العربية السعودية حتى بعد وفاته، لما له من تأثير تنويري على شعراء جيله ومن بعدهم من الشعراء. وهو مولود عام ١٩٥٢م، ويُعدُّ من رواد شعر التفعيلة الذين جددوا في الشعر السعودي واحتملوا نتائج نزعتهم التنويرية. وقد نال عددًا من الجوائز، منها: جائزة أفضل قصيدة في الدورة السابعة لمؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري، عام ٢٠٠٠م، عن قصيدة (موقف الرمال.. موقف الجناس)، وجائزة ولقب (شاعر عكاظ)، عام ٢٠٠٧م، وقد تعرض الثبيتي لأزمة قلبية، وذلك بعد عودته من رحلة ثقافية إلى اليمن عانى من آثارها، إلى أن تُوفي –رحمه الله– في يوم الجمعة ١٤ يناير ٢٠١١م. وللشاعر الثبيتي دواوين شعرية عدة، وقد أصدر النادي الأدبي في حائل أعمال الثبيتيّ الشعرية الكاملة في مجلد واحد.

خلصت الدراسة إلى الكشف عن نصٍّ يُسجّل إعجابًا بشخصية محمد الثبيتي، فالشاعر علي النحوي يتجاوز المعتاد والمعروف عن قصائد المدح، من خلال الاعتراف بتفرّد محمد الثبيتي في ميدان الشعر، ممّا يُخرجه من عالم الشعراء الفحول إلى عالم الشخصيات المؤَسْطَرة، إذ يُسبغ علي النحوي على الثبيتي صفات ذات بُعد عجائبي أسطوري تتجلّى في انتمائه إلى الرّيح التي تمنحه السيادة على البيد ما يجعل النّص يضع المتلقي أمام شخصية تنزع للأسطورة.

الكلمات المفاتيح: الأسطرة، الدلالات، العنوان، سيد البيد، محمد الثبيتي.

مدخل:

تقف الدراسة على قصيدة (سيّد البِيْد) للشاعر السعودي علي النحوي، المولود في مدينة الأحساء عام ١٣٨٧هـ، وهو حاصل على شهادة الماجستير من جامعة الملك فيصل، وكانت رسالته موسومة بـ"المرأة في الشعر الأحسائي الحديث"، وله مشاركات في العديد من الصحف والمحافل والمنتديات الأدبية المحلية والخليجية.

هذه القصيدة وردت في ديوانه (أنثى النّرد) الصادر عن نادي تبوك الأدبي بالتعاون مع مؤسسة الانتشار العربي، عام ٢٠١٦م، حيث يضمّ إحدى وعشرين قصيدة، وهي قصيدة مُهداة إلى الشاعر السعودي محمد الثبيتي، وتكمن أهمية الدراسة في تخصيص شاعر سعودي لنصٍّ يحتفي فيه بشاعر آخر؛ وهذه الأهمية تنطلق من القيمة الفنية التي تركها محمد الثبيتي على الساحة الشعرية في المملكة العربية السعودية، فالثبيتي من مواليد إحدى قرى بلاد بني سعد، جنوب مدينة الطائف عام ١٩٥٢م، وفي ١٤ من شهر يناير عام ٢٠١١م، توفّي في مكة المكرمة. وللثبيتي مجموعة من الأعمال، منها: عاشقة الزمن الوردي، تهجيت حلمًا تهجيت وهمًا، موقف الرمال. وصدرت عنه دراسات عدة، أهمّها دراسة سعيد السريحي الموسومة بـ"عتبات التهجّي"، التي تكشف تطور مسيرة الثبيتي الشعرية.

وعليه تسعى الدراسة إلى تجلية دور الثبيتي التنويري في عالم الشعر، حتى بات جديرًا بأن تكتب فيه القصائد؛ فجاء عنوانا لقصيدة الشاعر علي النحوي. وتتناول الدراسة قصيدة (سيد البِيْد) في جانبين؛ الجانب الأول: يتطرّق إلى العنوان وما يُختزنه من دلالات، في حين يعرض الجانب الثاني بنية القصيدة، وما تضُمّه من دلالات ذات علاقة بالقيمة الفنية والريادية للشاعر محمد الثبيتي. وعلى ضوء ذلك تتبنّى الدراسة المنهج الوصفي من خلال التحليل؛ فضلا عن الاستفادة من مناهج أخرى تُعين في استجلاء دلالات القصيدة، مثل: السيميائية.

تُشكل الأسطورة عالمًا زاخرا بالمعطيات ذات الدلالات التي تُمكّن الشاعر من منح النصّ المعاني الإنسانية في صورتها الفلسفية الأولى؛ فالأسطورة "حكاية مقدسة ذات مضمون، ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان". (السّواح، ٢٠٠١م، ١٤) وقد تتداخل الأسطورة مع الخرافة والقصص التراثية التي يتناقلها الناس، لكنّ "الحدود بين الخرافة والأسطورة ليست دائما على ما نشتهي من الوضوح، وقد يشبه بعضُ الخرافات الأساطيرَ في الشكل والمضمون إلى درجة تثير الالتباس والحيرة، فلا نستطيع التمييز بينهما إلا باستخدام المعيار الرئيسي الحاسم ... وهو معيار القداسة". (السواح، ٢٠٠١م، ١٥).

كما أن الأسطورة "ليست مجرّد قصص يرثها جيل عن جيل، وإنما هي نظرة إلى الحياة، وتفسير لها؛ فالشاعر لا يلجأ إلى الأسطورة بوصفها مادة جاهزة، وإنما قد يشكل أسطورته من خلال تجربته الشعرية، والشعر ليس حشوا للأساطير والرموز، وإنما هو رؤيا قبل كل شيء، لأنّ جمالية الأسطورة لا تكمن في توظيفها، بل في طريقة توظيفها، ومدى انسجامها مع السياق والمعنى". (حسين، ٢٠١٤م، ٨٦).

إذن، إن الحديث في هذه الدراسة لا ينصب على الأساطير الموروثة شفاهًا أو المدوَّنة في الكتب، وإنما يتمحور حول تشكيل أسطورة خاصة ينسج الشاعر لُحمتها وسُداها، كما يتمحور حول الصفات الأسطورية التي يجري إسقاطها على شخصيةٍ ما لكونها استحقت ذلك بما حققته من منجز يدعو إلى الإعجاب، ولأنها باتت ذات رمزية في مجال اشتغالها. والشاعر محمد الثبيتي إحدى هذه الشخصيات المُعجِبة؛ لأنه يُعدّ من أبرز رموز الشعر في المملكة العربية السعودية، ولأنه أحد أبرز الشعراء الذين واجهت تجربتهم الشعرية موجات معارضة بسبب المزاج العام السائد حينئذٍ، وهو ما عُرف بتيار الصحوة الذي كان في عداء شديد للحداثة عموما والحداثة الشعرية على وجه الخصوص، فمنع التجديد في الشعر وسدَّ على الشعراء المنافذ التنويرية؛ ولعل أبرز شاهد على مدة الصحوة وموقفها من الحداثة كتاب (الحداثة في ميزان الإسلام) لعوض القرني. وقد تمكّن الثبيتي من التعبير عن تجربته وعمّا يعتمل في فكره من إضاءات، وعما يمور في صدره من خلجات، وكان ذلك بأسلوب شعري يمتح من الحداثة الشعرية والفكرية على الرغم من الحُجُب والحواجز، فكان رمزًا شعريًّا أقلّه في عالم شعر التفعيلة؛ ولذا جاءت قصيدة (سيّد البِيْد) –للشاعر علي النحوي– تقديرًا لشاعرية محمد الثبيتي، واحترامًا لدوره ومنزلته في الحراك الشعري. ومن هذا المنطلق هدفت الدراسة إلى الوقوف على قصيدة الشاعر النحوي لتتبين تلك المنزلة من جانبين: العنوان، وبنية القصيدة.

أولًا: العنوان:

العنوان لغةً، يُشير إلى معان عدة، منها: "عَنَّ الشيءُ يَعِنُّ ويَعُنُّ عَنَناً وعُنُوناً: ظَهَرَ أمامك...واعْتَنَّ: اعتَرَضَ وعَرَضَ؛ وعَنَّ الكِتَابَ يَعُنُّه عَنّاً وعَنَّنه: كَعَنْوَنَه، وقال اللحياني: عَنَّنْتُ الكتابَ تَعْنيناً وعَنَّيْتُه تَعْنِيَةً إذا عَنْوَنْتَه ... وقال ابن بري: والعُنْوانُ الأثر... وكلما استدللت بشيءٍ تُظهره على غيره فهو عُنوانٌ له". (ابن منظور، ١٩٩٣م، ٤٣٧-٤٤١). وفي الاصطلاح، علامة تدلُّ القارئ على دلالات النص، فتُحفّزه من خلال التأويل. (حسين، ٢٠٠٧م، ٦٥)، أو هو "المرجع الذي يتضمن بداخلة العلامة والرمز، وتكثيف المعنى، إذ يحاول المؤلف أن يثبت فيه مقصده برمته، بوصفه النواة المتحركة التي خاط عليها نسيج نصه". (بخولة، ٢٠١٨، ٣٨). لذا يرى (جون كوهن) أنّ من أهم وظائف العنوان الأساسية

الإسناد والوصل، ويجري بواسطته الربط المنطقي. (كوهن، ١٩٨٦م، ١٦١)، في حين يحدّد (جيرار جينت) وظائف العنوان في: (التعيين، والوصف، والإيحاء، والإغراء) (بلعابد، ٢٠٠٨، ٧٨-٨٨). والشاعر علي النحوي، حين عَنْوَن قصيدته بعنوان (سيّد البِيْد)، جعل المتلقي أمام عنوان يُحيل إلى شخصية استثنائية، وأشار إليها بما يحددها ويعيّنها ابتداءً؛ لارتباطها بكلمة (البيد)، وبما لها من المكانة الشعرية والريادة، ولما يمكن أن يكون لها من الرمزية، أقلّه في نفس الشاعر.

وقد وردت كلمة (بيد) في معجم لسان العرب، على الوجه الآتي:

"بَادَ الشَّيْءُ يَبِيدُ بَيْدًا، إِذَا هَلَكَ، وَبَادَتْ الشَّمْسُ: غَرَبَتْ، والبَيْدَاءُ: الْفَلَاةُ، وَالْبَيْدَاءُ: الْمَفَازَةُ الْمُسْتَوِيَةُ يُجْرَى فِيهَا الْخَيْلُ، وَقِيلَ: مَفَازَةٌ لَا شَيْءَ فِيهَا. ويقول ابْنُ جِنِّيٍّ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تُبِيدُ مَنْ يَحِلُّهَا، ويرى ابْنُ شُمَيْلٍ: الْبَيْدَاءُ الْمَكَانُ الْمُسْتَوِي الْمُشْرِفُ، قَلِيلَةُ الشَّجَر". (ابن منظور، ١٩٩٣م، ٥٤٨).

وبناء على هذه الدلالات المعجمية يمكن القول إن الشاعر النحوي ينسب الثبيتي إلى منابع الشعر العربي، وإلى أصالة التجربة الشعرية في صورتها الصافية، ويضع المتلقي أمام شخصية تمثّل السيادة في عالم الشعر. بل يمكن القول بأن تلك السيادة مرتهنة إلى صعيدٍ شعريّ معيّن؛ فهي تمثّل السبق في نهج المَسْلك الحَزَن، وتمثّل التحدّي، كما تمثّل اصطناع الحياة من شبه العدم، أو اقتناص فرص الحياة في بيئة قد لا تكون مواتية للعيش فيها، والاستماتة في سبيل الإحياء، في غير مواربة ولا تخفٍّ.

وعليه، يبدو الشاعر علي النحوي وكأنّه ينسب الشاعر محمد الثبيتي إلى عالم البطولات؛ بطولات الصعاليك بما فيه من تمرّد على الواقع، وركوب للأخطار، وعيش في المفازات، ومقارعة للخصوم، وفرض لواقعٍ جديد؛ وكذلك بطولات التنويريين الذين يرون أن المجتمع جدير بأن تتوافر له مقومات تعينه على التجدّد ومواكبة سيرورة الحياة. ومسيرة محمد الثبيتي في تجربته الشعرية متماهية مع الصعلكة، ومع وظروف مسيرة الصعاليك بصورة أو بأخرى، كما هي متماهية مع فكرة سارق النار التي تتمثّل في نهوض شخصٍ ما بعبء تقديم أدوات جديدة للناس ليستعينوا بها على تجديد حياتهم. وقد تناولت الصحف والمقابلات الصحفية هذا الموضوع بشكل مستفيض. (https://althbaiti.com/).

ويمكن القول بأنّ عنوان قصيدة (سيّد البِيْد) يحمل الدلالات الموضحة في الشكل الآتي:

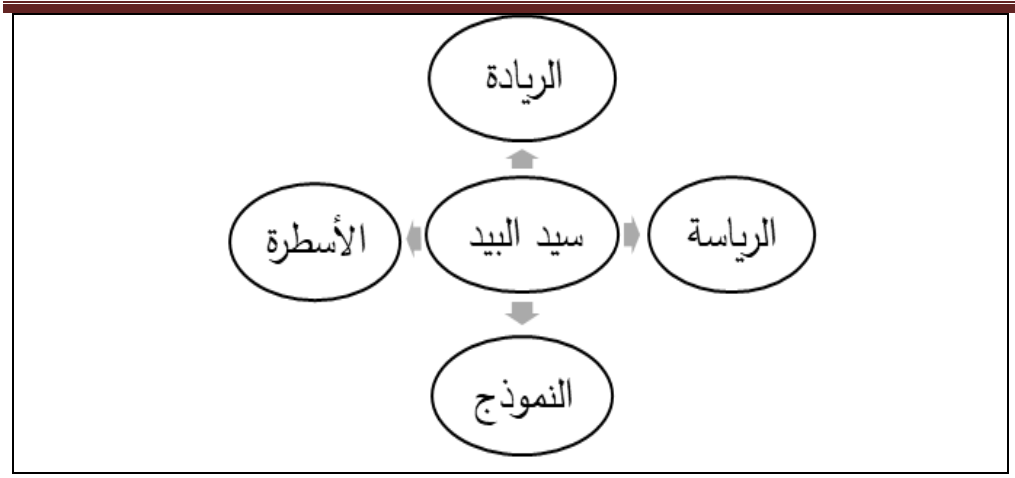

الشكل (١) دلالات العنوان

وبناء على هذه الدلالات يمكن استنباط أن الشاعر محمد الثبيتي:

- رائد في الحركة الشعرية العربية، ولا سيما حركة شعراء المملكة العربية السعودية، ونخصُّ منها (شعر التفعيلة)، إذ يُعدُّ رائدًا لهذا الشعر بشكله الفني المكتمل النضوج، وأنّ شعره شكّل منعطفًا في مسيرة الشعر في جزيرة العرب.
- قاد بتجربته وتأثيره الشعري مجموعة من الشعراء، ولعله قاد تيار الحداثة الشعرية، كما دفع بإمكاناته الشعرية النقادَ إلى تقدير تجربته الشعرية، في وقتٍ كانت القصيدة المشطورة هي الشائعة والمتسيّدة للمشهد الشعري.
- نال مرتبة من التبجيل الشعري والنقدي لنصوصه؛ إذ تُمثّل نصوصه الشعرية نموذجا مكتملا وغنيّا وعميقا لشعر التفعيلة في المملكة العربية السعودية؛ ولذا فإنّ إلهام تجربته الشعرية ما يزال مؤثرا في الشعراء من بعده، لا سيما الشعراء الشباب.

وفي كل ما سبق ما يسمح بالقول بأن الشخصية الشعرية لمحمد الثبيتي ما زالت متجددة حتى بعد وفاته، وكأنما نحن أمام انبعاث مستمر. وفي هذا من العوامل ما يسمح بافتراض أن هذه الشخصية قد خضعت لنوع من الأسطرة من الشعراء المُحدثين الساعين إلى التجديد، ومن النقاد الذين تبنّوا الحداثة على حدّ سواء.

ولا يقف اجلال الشاعر علي النحوي لشاعرية محمد الثبيتي عند العنوان، بل نجده مستمرا في بناء النص وفي تقنياته الشعرية، مثل استثمار التناص، والتناص البَعدي على وجه التحديد؛ وهو ذلك النوع الذي يأتي بعد إنتاج النص الشعري على شكل (الإهداء)، و(الاقتباسات)، و(المقدمات) و(الرسوم)، و(الصور)، و(الخطوط) وما سوى ذلك. (الصكر، ١٩٩٤م، ٢٥-٢٦).

وقيمة الإنتاج المضاف الذي يجري بعد إنتاج النص أنّه يترك أثرا بالغًا فيما يتعلّق بالاستقبال وكيفيته ومداه، وهو –دون أدنى شكّ– من العتبات النصّية. (الصكر، ١٩٩٤م، ٢٦)، وقد لجأ علي النحوي –بدايةً– إلى هذه التقنية من خلال وضعه عبارة الإهداء التي سبقت القصيدة في الديوان؛ إذ قال: "إلى محمد الثبيتي وحده، وأنا أتحسس الشِّيْحَ الذي مرَّ به هنا في طائفِه". (النحوي، ٢٠١٦م، ٦٧)، وهذا التحديد لا يؤدي إلى وضوح النصّ بشكل مُعيب، بل يمنح المتلقي تركيزًا على المقصود، وكأنّ الشاعر علي النحوي يريد تظهير الصورة الريادية لهذه الشخصية الشعرية دون الدخول في احتمالات أخرى. وفضلا عن هذا فإنّ العنوان هنا اقتباس جزئي لعنوان قصيدة للشاعر محمد الثبيتي، وهي قصيدة "تحية لسيد البيد". (الثبيتي، ٢٠٠٩م، ٩)، وهذا يعني أنّ هذه المكونات التناصيّة التي سبقت القصيدة قد تضافرت لتؤطر شخصية الشاعر محمد الثبيتي في إطار إجلاليّ وشبه مؤسطِرٍ، وهو إطار السيادة غير المنازَعة.

ثانيًا: القصيدة:

تتكون هذه القصيدة من خمسة مقاطع، يشكل كل مقطع منها بنية شعرية لصورة الشاعر محمد الثبيتي ومَقامه وتجربته في المخيال الشعري الذهني للشاعر علي النحوي، كما في وجدانه، وفي تفكيره. والمقاطع الخمسة التي تجسد القصيدة مكتملة تمثل كذلك البُنية الكبرى والصورة الكلية للشاعر الثبيتي في متخيل الشاعر النحوي وفي وجدانه وتفكيره وتجربته الشعرية. وسنرى أن صورة الشاعر الثبيتي تشهد خلال مقاطع قصيدة الشاعر النحوي الخمسةِ تطورا مضطردا، تشهد فيه الصورة تناميًا للإجلال، وتصاعدا لنبرة التأثير الشعري الذي أُوتيه الثبيتي على الشعراء.

المقطع الأول :

سوفَ تحيا النّسورُ التي رفرفت
بين جنبيكَ في أفِقِ المستحيل
سوفَ تطوي المدى
مثل برقِ المعاني التي
ألهمتكَ الشّموخَ على وقعِ خفقِ النّخيل (النحوي، ٢٠١٦م، ٦٧)

هذا المقطع يتقاطع في خطابه ورؤياه مع رؤيا الثبيتي نفسه في قصيدته (سيّد البِيْد)، إذ قال:

سَـــتَمُوتُ النُّسُـــورُ التـــي وَشَـــمَتْ دَمَـــكَ الطفـــلَ يومًـــا
وأنـــتَ الـــذي فـــي عـــروقِ الثـــرى نخلـــةٌ لا تَمُـــوتْ
مَرْحَباً سَيَّدَ البِيْد .. (الثبيتي، ٢٠٠٩م، ٩–١٠)

يبشّر محمد الثبيتي في هذا المقطع الذات الشاعرة بالخلود مقابل فناء كلّ أعدائها وخصومها، أولئك الذين أرادوا قتلها في طفولتها عدوانًا وغيلة كما تفعل النسور حين تريد إهلاك فريستها. وهم أيضا الذين سعوا حثيثًا إلى ذلك منذ بدايات الثبيتي التجديدية، حتى إنهم تركوا آثارًا باقية بقاء الوشم. أما الشاعر الذي ظهرت عليه أمارات الشاعرية ونطق بالشعر صغيرًا فإنه قد امتصّ تلك الهجمة الشرسة عليه، وصار تحدّي البقاء والرسوخ والتفوّق من صميم دمه؛ ومن هنا تأتي رمزيّته متجسّدة في النخلة التي تجذرت في أرضها مقابل رمزية النسور التي تدل على القتلة الغادرين. ولمّا كانت البِيد أكثر ما يتناسب مع حياة النخل وجودة إنتاجه من بين البيئات الأخرى حُقّ لها أن تكون سيّدة بيئتها القاسية تضاريسًا وظروف عيش وأمان، ومن هنا صيرورة الشاعر الصامد في وجه الجوارح القاتلة، وصيرورة المنتج شعرا من أجود ما يكون فنيّا وأصالة وثباتًا.

ويضاف إلى هذا -بداهةً- الارتباط الحيوي بين أبناء الصحراء والشعر، مع الأخذ بالحسبان أن الشاعر محمد الثبيتي اختار كلمة (البيد) لا (الصحراء) لدلالاتها المتمحورة على القسوة، والهلاك المرجّح، وفوز مَن يستعصي على طبيعتها وشراستها، كما تتمحور حول الانكشاف على صعيد الاستواء الجغرافي، وعلى صعيد انعدام الغطاء الطبيعي من الشجر أو الحجر أو ما سواهما مما قد يكون سترا وحماية ووقاية لقاطع البيداء. ومن هنا يمكن القول بأن (سيد البيد) يفضُل (سيد الصحراء) مثلا، أو حتى (سيد المفازة) نظرا لضعف احتمالات النجاة، ولأن في دلالة (البيد) زيادة على دلالة (المفازة) التي تزيد بدورها على دلالة (الصحراء).

والشاعر علي النحوي إذ يحيّي سيدَ البيد فكأنه يقدم له التهنئة بالفوز بقطع المفازة والظفر بما يظفر به من تسيَّدَها؛ وبالتالي فإنه يقرّ للشاعر الثبيتي بالسيادة الشعرية في أعلى مستوياتها، أي الشعرية المرتبطة بالبيداء شديدة وطأةِ التنافسية والعدائية، والمرتبطة كذلك بجزيرة العرب حيث يكثر الشعراء فترتفع معايير التنافس، وحيث الخروج على تقاليد القصيدة الموروثة بمنزلة تعريض النفس للاستهداف.

ثم إن هذا الإقرار ليس الغاية من تقاطع علي النحوي مع محمد الثبيتي، وإنما الغاية ما استوجب هذا الإقرار، وهو ما يتمثل في عاملين؛ أحدهما تحليق الثبيتي في فضاء الشعر عاليًا علوَّ شموخ النسور التي تفرد أجنحتها في السموّ الشاهق. والآخر تسامي الثبيتي على المألوف، وعلى الصراعات التي تستنزف الطاقات، وتُبدّد الإمكانات، وتشلّ الملكات الفنية؛ أي تساميه عما يبقيه مشدودًا إلى الأرض، فقد فاق أقرانه وبني قومه في مضمار الشاعرية، وقَبِلَ التحدي، وصمد للخصوم والمتربصين، ورفض الإخلاد إلى المنخفض من أرض الشعر.

وسموّ الشاعر محمد الثبيتي وتحليقه في الشاهق من سماء الشعر كان من طريقين؛ إحداهما "برق المعاني" بحسب تعبير علي النحوي، أي سموّ معانيه الشعرية؛ والأخرى علوّ نجم شخصه، وطيران ذكره، وسيرورة شعره في الآفاق، وعلى وجه أخص في آفاق جزيرة العرب. وما دام الأمر على هذا النحو فإن إقرار الشاعر علي النحوي لمحمد الثبيتي بالسيادة على البيْد يعني التنبؤ له بالخلود ذِكرًا، وربما الإقرار بهذا الخلود.

ومن بديع التعبير في مقطع علي النحوي أنه أزاح (النسور) من موضع الاعتداء وموقف العائق إلى الموضع والموقف النقيض؛ فقد جعل الثبيتي متماهيًا مع تعالي النسور في اتخاذ أوكارها، مما أكسبه طبيعتها المتسامية في التحليق واتخاذ الأوكار في المرتفعات الشاهقة. كما أنه قابل فعلا بفعل، حيث النسور عند الثبيتي سوف "تموت". (الثبيتي، ٢٠٠٩م، ٩-١٠)، أما عند النحوي فإنها سوف "تحيا". (النحوي، ٢٠١٦م، ٦٧)، وفي لفتة أخرى، جعل عليّ النحوي علة الخلود التحليقَ المستمر، وطيَّ المدى رفرفةً فيما العلة عند محمد الثبيتي على النقيض من هذا، أقلّه من حيث تصوّر طريقة التمكّن، فهي تتمثل في الجذور، والأصالة، والتعايش، والصمود.

في المقطع الثاني قال عليّ النحوي:

أيّها المنتمي للريّاحِ
التي ألهبت قدمَ الحاملينَ
كؤوسَ الضّنى بالطريقِ الطويل
سوفَ يبتلُّ من
بحرِكَ العبقريّ فؤادُ
الجهاتِ التي آذنت بالرّحيل. (النحوي، ٢٠١٦م، ٦٨)

يتبدّى للمتلقي أنّ شخصية الثبيتي الشعرية – كما هي في عيني عليّ النحوي – تخرج من دائرة البشرية، إذ تنتمي لبعض مكونات الطبيعة الأربع، فالرياح لها دلالاتها، ومنها النفوذ في كل فضاء، والهبوب من جميع الجهات، وطيران الذكر، والبشارة بالمطر، ودفع الساكن إلى التحرّك. وإسقاط هذه الدلالات على محمد الثبيتي فيه شهادة من شاعر على مكانة الشاعر الثبيتي الذي سبقه زمنًا وتجربة بأن تأثيره في الشعراء من مجايليه وممن يأتي بعده كتأثير الرياح التي تحرك الساكن من أي جهة هبَّتْ، والتي تبشر بالمطر الذي يبُل الجفاف من أرض الشعراء. ثم إنّ النحوي يعود لينسب الثبيتي إلى الماء، وإلى ماء البحر تحديدًا، وهو ذلك الماء الذي يبتل به قليلًا أو كثيرًا كلّ من ورد شطآن العبقرية الشعرية، وتبتلّ بنداه المحمول عبر نسائم الرياح كل الجهات حتى تلك الجهات التقليدية "التي آذنت بالرحيل".

وهذا الانتماء الذي صوَّره الشاعر النحوي للشاعر الثبيتي يعكس المساحة الشاسعة التي تأثرت برياح الثبيتي ونسائم بحره.

وهذا المقطع يتعالق مع نصّ قصيدة الثبيتي (بوابة الريح)، التي قال فيها:

مَضَى شِرَاعي بِمَا لا تَشتهِي رِيحِي
وفَاتَنِي الفجْرُ إذْ طالَتْ تَرَاوِيحِي
أَبْحَرْتُ تَهوِي إلى الأعماقِ قَافِيَتِي
ويَرْتقِي في حِبالِ الرّيحِ تَسْبِيحِي
مُزَّملٌ فِي ثِيَابِ النُّورِ مُنْتَبِذٌ
تِلْقَاءَ مَكَّةَ أَتْلُو آيَةَ الرُّوحِ
واللَّيلُ يَعْجَبُ منِّي ثُمَّ يَسْأَلُنِي
بوابَةُ الرِّيحِ! مَا بوابةُ الرِّيحِ؟. (الثبيتي، ٢٠٠٩، ٢٩٩-٣٠١)

والتعالق آتٍ من جهة أنّ الثبيتي قد انشدّ إلى أصالته وتقاليد الشعر على الرغم من نزعة الانطلاق والتمرّد والعَصْف التي تتسم بها الريح؛ ولذلك فإنه يمكن القول بأنّه لم يطلق كامل إمكانات النزعة التجديدية في شعره حتى وإن نجح في التجديد والانتشار والتأثير.

في المقطع الثالث نجد اعترافًا من الشاعر النحوي بنبوءة الشاعر الثبيتي؛ فهو يتقاطع مع بعض إنتاجه بما يبدو وكأنّه بعثٌ جديدٌ لنصوص الثبيتي في صورة من الصور، وإحالة تجبر المتلقي على العودة إلى تلك النصوص الثُبيتيّة الملهِمة. ونجد مصداق هذا التأثر والاعتراف بالتأثير عند الشاعر النحوي ،إذ قال:

كنتَ تروي
ظما الشّيحِ للماءِ وللنّارِ كنتَ تهيّءُ
معنىً بعيدًا لتشعلَ باقي الفتيل
سر إلى الماوراءِ
على ضوءِ نجمٍ وعتمةِ
غيبٍ وكوبٍ من الهيلِ والزّنجبيل. (النحوي، ٢٠١٦م، ٦٨)

يبدو أن الشاعر عليّ النحوي – بعد كل هذا – قد تجاوز نظرة الإجلال للشاعر الثبيتي فأخذ في أسطرته؛ إذ أكّد انتماءه للريّح، هذا الانتماء الذي يُمكّنه من قيادة السحاب لتَسقي الشّيح، ولتُمكّن النار من الاشتعال؛ ثم يربط بين الثبيتي والعالم الآخر (الماوراء)؛ ولعلّ في هذا إيماءة إلى أسطورة (بروميثيوس) سارق النار؛ إذ تقوم أسطورة بروميثيوس على فكرة سرقته النارَ من المجمع المقدّس وتقديمها إلى البشر. (شابيرو، ٢٠٠٨م، ٢١٤، وفريزر، ٢١٩-٢٢٣، وعوض، ٢٠٠٩م، ٥-١٠).

وفي المقطع الرابع قال النحويّ:

سيّدَ البيدِ

هل من ربابةِ حبٍّ تعيدُ إلى

خيمةِ الرّوحِ معنى الجنونِ الأصيل

صُبَّ نخبَ الحياةِ

بأقداحِ سربٍ من الطّيرِ يطفو

على الخمرِ واشرب نبيذَ الأصيل . (النحوي، ٢٠١٦، ٦٩)

يخاطب الشاعر النحويّ سيدَ البيد، سائلًا سؤالا يبدو طلبًا، عن ربابة تُعيد الحبّ، وكلّ ما يتعلق به من جنون، فالحياة مرحٌ يستحق أن يُصبَّ نخبها. ومكمن جمال هذا المقطع متأتٍّ من البساطة التي لا تلبث أن تنزع إلى ما يفوق طبيعة البشر، أو طبيعة عيشهم؛ وذلك ما يتبدى من الصورة الشعرية المركبة التي تظهر فيها الطَّيرُ كأقداحٍ ثم تعود لتطفو هي نفسها على الخمر. ولكنّ كل هذا ينتهي إلى فكرة الأصالة الشعرية لدى الشاعر الثبيتي، إذ يعود الاشعر النحويّ إلى حيث بدأ بالحديث عن الأصيل.

كما يتبيّن أنّ الشاعر النحويّ قد استخدم مفردات عدة، أبرزها (رَبابة، حبّ، الرّوح، الحياة، صُبّ، الطّير، الأصِيل)، وهي مفردات ذات علاقة وثيقة بالمرح والسرور؛ فيبدو هنا أن الشاعر النحوي يواصل البحث عن جمال الحياة –وذروته لذة التجلّي–من خلال الثبيتي، والربابة ذات علاقة وثيقة بالثبيتي من أكثر من وجه، وأحد الأوجه استدعاء قصيدة الثبيتي الموسومة بـ(تغريبة القوافل والمطر):

أَدِرْ مُهْجَةَ الصُّبْحِ

صُبَّ لنَا وطناً فِي الكُؤُوسْ

يُدِيرُ الرُّؤُوسْ

وزِدْنَا مِنَ الشَّاذِلِيَّةِ حتَّى تَفِيءَ السَّحَابَةْ أَدِرْ مُهْجَةَ الصُّبْحِ

واسْفَحْ علَى قِلَلِ القَومِ قَهْوتَكَ المُرَّةَ

المُسْتَطَابَةْ

أَدِرْ مُهْجَةَ الصُّبْحِ مَمْزُوجَةً بِاللَّظَى

وقَلِّبْ مواجعنَا فوقَ جَمْرِ الغَضَا

ثُمَّ هَاتِ الرَّبَابَةَ

هاتِ الرَّبَابةْ . (الثبيتي، ٢٠٠٩م، ٩٧)

إن هذا المقطع يظهر بوضوح مدى تناصّ الشاعر النحوي مع الشاعر الثبيتي، حتى إنه يستلهم صوره ببعض الانزياحات، ويعيد توظيف مفرداته، وينوّع على بعض مكوّنات لغته الشعرية، مثل النار، والخمر، والريح، والربابة، والبيد.

ولقد قال الشاعر النحوي –في المقطع الخامس–وهو المقطع الأخير من هذه القصيدة:

مُترعًا بالأساطيرِ
تمضي إلينا وما جاوزَ
الوقتُ حدّ التباسِ الهجيرِ بظلٍّ ظليل
إنّها نوتةُ الخُلدِ
فابعث منَ الرّملِ
صبارةَ الشِّعرِ واضحك وأنتَ الجليلُ النبيل !! (النحوي، ٢٠١٦م، ٦٩)

يُمثّل هذا المقطع استكمالًا لنزعة الأسطرة التي تُسيطر على الشاعر النحويّ تجاه محمد الثبيتي؛ إذ يُفصح عن ألفاظ غاية في الوضوح الدالّ على رؤية أنّ عالم الثبيتي مغشّى بالأسطورة ومتضلّع منها؛ فالثبيتي يُقدُم إلى الشعراء "مترعًا بالأساطير"، وهو –لشدة ما أُترع بتلك الأساطير الموروثة والشخصية– قد بَكَر إليهم وما زال يسقيهم منها ويروي ظمأهم والهجير لمّا ينكفئ، فهم ما زالوا في منتصف النهار فكيف إن أدركهم الليل وهو الفضاء الزمني للأساطير وتناميها.

إن أسطورة الثبيتي الشخصية منبثقة من أصالته المنغرسة في رمال البيد، وهذا ما يدلّ عليه قول النحويّ "فابعث من الرمل"، ثم إن على هذه الأصالة دالًّا آخر، وهو الصبّار الذي يكسب المعنى دلالة إضافية تستدعي صورة الرسوخ التي سلفت في المقطع الأول ممن قصيدة الشاعر على النحوي. ولا ينتهي النحوي من قصيدته هذه حتى يعلن إجلاله الذي تراءى لنا في مطلع القصيدة؛ إذ ختم بقوله " وأنت الجليل النبيل".

ويُبيّن الشكل الآتي المقاطع الخمسة، ودلالاتها؛ التي تُشكّل أسطورة الثبيتي من وجهة نظر النحويّ:

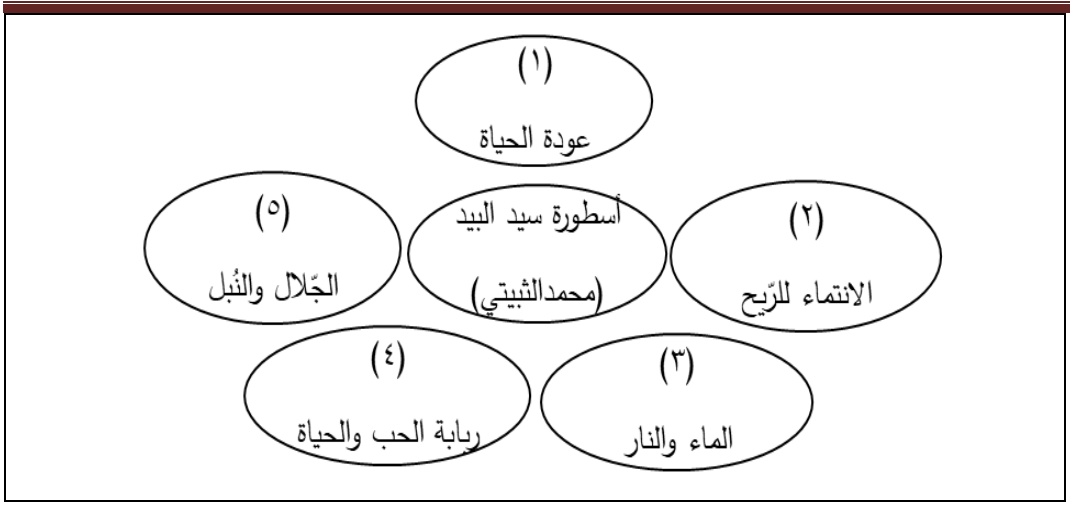

الشكل (٢) دلالات مقاطع القصيدة

الخاتمة:

تكشف هذه القراءة عن نصٍّ يتجاوز النصوص المرتبطة بالمدح، إذ يعمد الشاعر علي النحوي في قصيدته (سيد البِيْد)؛ إلى بيان الإعجاب بشخصية الشاعر محمد الثبيتي وبتجربته الشعرية، لكنّه يتجاوز المعتاد والمعروف عن قصائد المدح. وتتجلّى قيمة الممدوح في هذا النَّص من خلال محاور عدة؛ تتمثّل في:

- العنونة: تنطوي على شخصية ملأت مساحة شاسعة، فباتت لها السيادة على البِيْد، وهي سيادة تندرج تحتها قيمة فنية؛ تركت أثرها على الساحة الشعرية، فالعنوان ثيمةٌ تثير في المتلقي رغبة معرفة هذه الشخصية.
- الإهداء: يحدّد الشخصية، ويسبغ عليها طابعًا أسطوريا من خلال رائحة الشيح، وانتماء مدينة الطائف إليه.
- مقاطع القصيدة: اعترافٌ بتفرّد محمد الثبيتي في ميدان الشعر، فضلا عن اعترافه بقدرة الثبيتي على تجاوز كلّ المصاعب، كما أنّ القصيدة تُخرج الشاعر محمد الثبيتي من عالمنا إلى عالم الأساطير، فالشاعر علي النحوي يُسبغ عليه صفات أسطورية، تتمثّل بانتمائه إلى الرّيح، وسيادة على البيد، وقدرته على إلهام الشعراء، فالمتلقي أمام شخصية أسطورية تشكّلت في مخيلة الشاعر، فأصبح الثبيتي (برومثيوس الشعراء)؛ لتفرّده بما قدمّه في الساحة الإبداعية، وتَقدّمِه على الشعراء في الشعر، ممّا ترك أثرًا لا يمكن تجاوزه.

وأخيرًا يُعدُّ هذا النص إنصافًا لمحمد الثبيتي، الذي لم يأخذ حقّه في مدة حياته، وهي التفاتة جميلة من الشاعر علي النحوي تجاه أديب قدّم إبداعًا قلّ نظيره.

ملحق: (نصّ القصيدة)

سيد البيد..

"إلى محمد الثبيتي وحده وأنا

أتحسس الشّيح الذي مرّ به هنا في

طائفه"

(1)

سوف تحيا النّسور التي رفرفت

بين جنبيكَ في أفِقِ المستحيل

سوفَ تطوي المدى

مثل برقِ المعاني التي

ألهمتكَ الشّموخَ على وقعِ النّخيل

(2)

أيُّها المنتمي للرّياح

التي ألهبت قدم الحاملينَ

كؤوس الضّنى بالطريقِ الطويل

سوف يبتلُّ من

بحرِكّ العبقريّ فؤادُ

الجهاتِ التي آذنت بالرّحيل

(3)

كنتّ تروي

ظما الشّيحِ للماءِ، وللنارِ كنت تهيّءُ

معنىً بعيدًا لتشعلَ باقي الفتيل

سر إلى الماوراءِ

على ضوءِ نجمٍ وعتمةِ

غيبٍ وكوبٍ من الهيل والزنجبيل

(4)

سيّد البيدِ

هل من ربابةِ حبٍّ تُعيدُ إلى

خيمةِ الرّوحِ معنى الجنون الأصيل

صُبَّ نخبَ الحياةِ

بأقداحِ سربٍ من الطّير يطفو
على الخمرِ واشرب نبيذَ الأصيل
(5)
مترعًا بالأساطيرِ
تمضي إلينا وما جاوزَ
الوقتُ حدّ التباسِ الهجير بظلٍّ ظليل
إنّها نوتةُ الخلدِ
فابعث منَ الرّملِ
صبارةَ الشّعرِ واضحك وأنتَ الجليلُ النبيل!!

المصادر والمراجع:

١. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين (١٩٩٣م)، لسان العرب، الجزء الأول، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث، بيروت، ط٣.
٢. بخولة، بن الدين (٢٠١٨م)، العنوان بين مدلول اللغة ومفهوم الاصطلاح، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الوادي، الجزائر المجلد١٠، العدد (١)، من ص ٤٣٨ إلى ص ٤٤٩.
٣. الثبيتي، محمد (٢٠٠٩م)، الأعمال الكاملة، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت /النادي الأدبي، حائل، ط١.
٤. حسين، خالد (٢٠٠٧م)، في نظرية العنوان (مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية)، دار التكوين، دمشق، د.ط،
٥. حسين، فتيحة (٢٠١٤م)، توظيف الأسطورة في الشعر العربي الحداثي، معارف، جامعة البويرة، الجزائر، السنة الثامنة، العدد (١٥) جوان، من ص ٨٣ إلى ص ٩٤.
٦. السّواح، فراس (٢٠٠١م)، الأسطورة والمعنى :دراسات في الميثولوجيا والديانات الشرقية، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ط٢.
٧. شابيرو، ماكس، هندريكس، رودا (٢٠٠٨م)، معجم الأساطير، ترجمة: حنا عبود، دار علاء الدين للنشر، دمشق، ط ٣.
٨. الصكر، حاتم (٢٠٠٨م)، كتابة الذات دراسات في وقائعية الشعر، دار الشروق، عمّان، الأردن، ط١، ١٩٩٤م.
٩. عبدالحق بلعابد (٢٠٠٨م)، عتبات: جيرار جينيت من النصّ إلى المناص، منشورات الاختلاف، الجزائر/ الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١.
١٠. عوض، لويس (٢٠٠٩م)، أسطورة بروميثيوس في الأدبين الإنجليزي والفرنسي: دراسة في التأثير والتأثر، الجزء الأول، ترجمة: جمال الجزيري، وبهاء جاهين، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط٢.
١١. فريزر، جيمس (د.ت)، أساطير في أصل النار، ترجمة: يوسف شلب الشام، دار الكندي، دمشق، ط١.

١٢.كوهن، جان (١٩٨٦م)، بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الولي، ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٦م.

١٣.موقع الشاعر محمد الثبيتي: https://althbaiti.com/، تاريخ الاطلاع: ١-١٢-٢٠٢٢م.

١٤.النحوي، علي (٢٠١٦م)، أنثى النرد، نادي تبوك الأدبي، تبوك/مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط١.